

# مجموعة رسائل ابن عربي

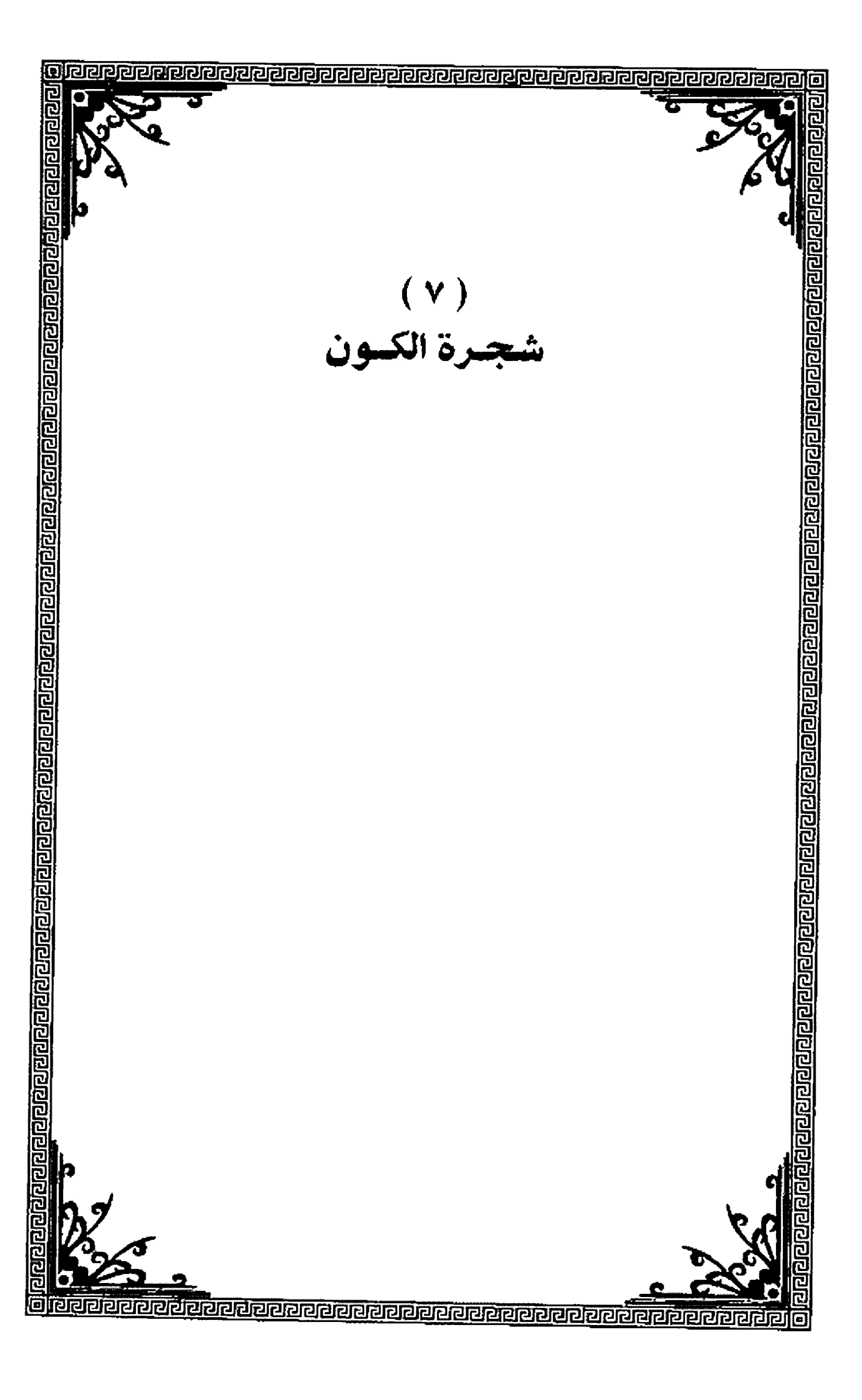
تأليف

الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر سيدي
محي الدين بن عربي الحاتمي الطائي

## المجلد الأول

دار الرسول الأكرم (ص)

دار المحجة البيضاء



# ( ٧ )
# شجـرة الكـون

# بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله الأحدي الذات ، الفردي الصفات ، الذي تقدس وجهه عن الجهات ، وقدسه عن المحدثات ، وقدمه عن الجهات ، ويده عن الحركات ، وعينه عن اللحظات ، واستواؤه عن الإتصالات ، وقدرته عن الهفوات ، وإرادته عن الشهوات .

الذي لا تعدد لصفاته بعدد الموصوفات ، ولا تختلف إرادته باختلاف المرادات ، وكون بكلمة «كن» جميع الكائنات ، وأوجد بها جميع الموجودات .

فلا موجود إلاَّ مستخرج من كنهها المكنون ، ولا مكنون ، إلاَّ مستخرج من سرها المصون ، قال الله تعالى : ﴿**إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون**﴾[1] .

وبعد : فإني نظرت إلى الكون وتكوينه ، وإلى المكنون وتدوينه ، فرأيت الكون كله شجرة ، وأصل نورها[2] من حبة «كن» قد لقحت كاف الكونية ، بلقاح حبة : ـ نحن خلقناكم ـ فانعقد من ذلك

(١) سورة النحل ؛ الآية : ٤٠ .

(٢) النور : بفتح النون المشددة ، زهر الشجر .

البزر ثمرة ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾ ، وظهر من هذا غصنان مختلفان أصلهما واحد ، وهو الإرادة ، وفرعهما القدرة ، فظهر عن جوهر الكاف معنيان مختلفان ، كاف الكمالية ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ ، وكاف الكفرية ﴿فمنهم من آمن ومنهم من كفر﴾ .

وظهر جوهر النون «نون النكرة ونون المعرفة» فلما أبرزهم من كن[1] العدم على حكم مراد القدم ، رش عليهم من نوره[2] ، فأما من أصابه ذلك النور فحدق[3] إلى تمثال شجرة الكون المستخرجة من حبة «كن»[4] ، فلاح له في سر كافها تمثال﴿كنتم خير أمة﴾ واتضح له في شرح لونها ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾ .

وأما من أخطأه ذلك النور ، فطولب بكشف المعنى المقصود من حرف «كن» ، فغلط في هجائه وخاب في رجائه ، فنظر إلى مثال كن ، فظن أنها كاف كفرية ، بنون نكرة ، فكان من الكافرين .

وكان حظ كل مخلوق من كلمة «كن» : ما علم من هجاء حروفها ، وما شهد من سرائر خفائها ، دليله قوله (ص) «إن الله خلق خلقه في ظلمة ، ثم رش عليهم من نوره، فمن أصابه ذلك النور اهتدى ، ومن أخطاه ذلك النور : ضلّ وغوى» .

---

(١) بكسر الكاف وتشديد النون .

(٢) لحديث رسول الله (ص) القائل : «إن الله خلق الخلق ، فألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من نوره يومئذ اهتدى ، ومن أخطأه ضل» وسيورده المصنف بعد قليل .
والحديث رواه الإمام أحمد والترمذي ، والحاكم .

(٣) بمعنى نظر ، والضمير راجع إلى من أصابه النور .

(٤) لأن الله تعالى خلق ويخلق بـ «كن فيكون» لقوله تعالى : ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردنا أن نقول له كن فيكون﴾ .
وقوله (رضي الله عنه) من «حبة كن» من باب التشبيه ، لأن أصل الشجر من حبة تلقى في الأرض فتنبت .

فلما نظر آدم إلى دائرة الوجود ، فوجد كل موجود دائراً في دائرة الكون : واحد من نار ، وواحد من طين .

ثم رأى هذه الدائرة على سرائر «كن» ، فكيفما دار واستدار وحيثما طار واستطار ، فاليها يؤول ، وعليها يجول ، ولا يزول عنها ولا يحول .

فواحد شهد كاف الكمالية ، ونون المعرفة .

وواحد شهد ، كاف الكفرية ، ونون النكرة .

فهو على حكم ما شهد ، راجع إلى نقطة دائرة «كن» .

وليس للمكون أن يجاوز ما أراده المكون[1] .

فإذا نظرت إلى اختلاف أغصان شجرة الكون ، ونوع ثمارها ، علمت أن أصل ذلك ناشيء من حبة «كن» ، بائن عنها .

فلما أدخل آدم في مكتب التعليم ، وعلم الأسماء كلها ، نظر إلى مثال «كن» ، ونظر إلى مراد المكون من المكون ، فشهد المعلم من كاف «كن» : كاف الكنزية «كنت كنزاً مختفياً لا أعرف ، فأحببت أن أعرف» فنظر من سر النون : نون الأنانية **﴿إنني أنا الله لا إله إلاَّ أنا﴾** الآية .

فلما صح الهجاء ، وحقق الرجاء : استنبط له من كاف الكنزية كاف التكريم ـ ولقد كرمنا بني آدم ـ وكاف الكنتية : «كنت له سمعاً وبصراً ويداً» واستخرج له من نون الانانية : نون النورية ـ وجعلنا له نوراً ـ واتصلت بها نون النعمة ، **﴿وأن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾** .

وأما إبليس (لعنه الله)، فإنه مكث في مكتب التعليم أو بعين ألف عام : يتصفح حروف «كن» ، وقد وكله المعلم إلى نفسه ، وأحاله

---

(١) الأولى بفتح الواو المشددة ، والثانية بكسرها .

على حـوله وقـوته ، فكـان ينظر إلى تمثـال «كن» ، ليشهـد من تمثـالهـا كـاف كفره ، فتكبـر ـ فأبى واستكبـر ـ ويشهد من نـونها : نـون نـاريتـه ﴿خلقتني من نار﴾فاتصلت كاف كفريته بنون ناريته ـ فكبكبوا فيها ـ .

فلمـا نـظر آدم إلى اختـلاف هـذه الشجـرة ، وتنـوع أزهـارهـا وثمارها ، فتثبت بغصن ـ إني أنـا الله ـ فنودي : كـل من ثمار التـوحيد ، واستظل بظل التفريد ـ ولا تقرباً ـ .

فـأراد إبليس : أن يوصله بغصن ـ فـوسوس لهمـا ـ ـ فأكـلا منها ـ فـزلقـا في مـزالق ـ وعصى ـ واستمسـك بغصن ﴿ربنـا ظلمنـا أنفسنـا﴾ فتـدلت عليـه ثمـار ـ فتلقى ـ فلمـا نـودي يـوم الأشهـاد ، على رؤوس الأشهـاد ـ ألست بربكم ـ فشهـد كل على مقـدار ما شهـد ، وسمع ، ثم اتفق الكـل في الايجاب ، فقـالوا ـ بلى ـ لكن الاختـلاف وقع من حيث الاشهـاد ، فمن أشهده جمـالية ذاتـه شهـد أنـه ﴿ليس كمثله شيء﴾ ومن أشهـده جماليـة صفاتـه : شهد : أنـه ﴿لا إلـه إلاّ هـو الملك القـدوس﴾ ومن أشهــده عــرائس مخلوقــاتــه ، اختلفت شهــاداتهم ، لأختــلاف المشهـود ، فقوم جعلوه محـدوداً ، وقـوم جعلوه معـدومـاً ، وقـوم جعلوه حجـراً جلمـوداً ، والكـل في ذلـك على حكم ﴿قـل لن يصيبنـا﴾ وهــو مستبطن في سر كلمة «كن» ، دائر على نقطة دائرتهـا ، ثابت على أصـل حبتها .

فلما كانت هـذه الحبة بـرز شجرة الكـون ، وبرز ثمـرتها ، ومعنى صورتها ، أحببت أن أجعل للمكنون مثـالاً وللموجـود تمثالاً ، ولمـا ينتج فيه من الأقوال والأفعال والأحوال منـوالاً ، فمثلت شجرة نبتت عن أصـل حبة «كن» ، وكل ما يحدث في الكون من الحوادث ، كـالنقص والزيـادة والغيب والشهـادة ، والكفر والإيمـان ، ومـا تثمـر من الأعمـال ، وزكـاة الأحـوال ، وما يـظهر من أزاهيـر القول ، والتـوق[1] والـذوق ، ولـطائف

(١) من تاق ، بمعنى اشتاق .

المعارف ، وما تورق به من قربات المقربين ، ومقامات المتقين ، ومنازلات الصديقين ، ومناجاة العارفين ، ومشاهدات المحبين ، كل ذلك من ثمرها الذي أثمرته ، وطلعها الذي أطلعته .

فأول ما أنبتت هذه الشجرة التي هي حبة «كن» : ثلاثة أغصان :

أخذ غصن منها ذات اليمين ، فهم أصحاب اليمين .

وأخذ غصن منها ذات الشمال[1] .

ونبت غصن منها معتدل القامة ، على سبيل الاستقامة ، فكان منه السابقون المقربون .

فلما ثبت واستعلى ، جاء من فرعها الأعلى ـ وجاء من فرعها الأدنى : عالم الصورة والمعنى ، فما كان من قشورها الظاهرة ، وستورها البارزة ، فهو عالم الملك ، وما كان من قلوبها الباطنة ، ولباب معانيها الخافية ، فهو عالم الملكوت .

وما كان من الماء الجاري في شريانات عروقها ، الذي حصل به نموها وحياتها وسموها ، وبه طلعت أزهارها ، واينعت ثمارها ، فهو عالم الجبروت ، الذي هو سر كلمة «كن» .

ثم أحاط بالشجرة حائط ، وحد لها حدود ، ورسم لها رسوم .

فحدودها الجهات ، وهن : العلو ، والسفل ، واليمين ، والشمال ، ووراء ، وأمام .

فما كان أعلى فهو حدها الأعلى ، وما كان أسفل فهو حدها الأسفل .

---

(١) لعل هنا سقطا تقديره : (فهم أصحاب الشمال) .

وأما رسومها ، وما فيها من الأفلاك والأجرام والأملاك والأحكام والآثار والأعلام ، فجعل السبع الطباق بمنزلة منا يستظل به من الأوراق .

وجعل الكواكب في الأشراق بمنزلة الأزهار في الآفاق .

وجعل الليل والنهار بمنزلة رداءين مختلفين: أحدهما أسود يرتدي به ، ليحتجب عن الأبصار ، والآخر أبيض يرتدي به ليتجلى على ذوات الاستبصار .

وجعل العرش بمنزلة بيت مال هذه الشجرة ، وخزانة سلاحها ، فمنه يستمد ما فيه صلاحها ، وفيه سواس هذه الشجرة وخدمها - **﴿وترى الملائكة حافين من حول العرش﴾** إليه يتوجهون ،وعليه يعولون، وحوله يحومون، وبه يطوفون ، وحيثما كانوا ، فإليه يشيرون .

فمتى حدث في أشجرة حادثة ، أو نزل بشيء منها نازلة ، رفعوا أيدي المسألة والتضرع إلى جهة عرشه ، يطلبون الشفاء ، ويستعفون عن الخطأ ، لأن موجد هذه الشجرة : لا جهة إليه يُشار إليها ، ولا أينية له يقصدونها ولا كيفية له يعرفونها .

فلو لم يكن العرش جهة يتوجهون إليه للقيام بخدمته ، ولأداء طاعته ، لضلوا : طلبهم .

فهو سبحانه وتعالى إنما أوجد العرش أظهاراً لقدرته ، لا محلاً لذاته .

وأوجد الوجود ، لا لحاجة له به ، وإنما هو إظهار لاسمائه وصفاته ، فإن من أسمائه : الغفور ، ومن صفاته المغفرة ، ومن أسمائه الرحيم ، ومن صفاته : الرحمة : ومن أسمائه الكريم ، ومن صفاته : الكرم ، فاختلف أغصان هذه الشجرة ، وتنوعت ثمارها ليظهر سر مغفرته للمذنب ، ورحمته للمحسن ، وفضله للطائع ، وعدله

للعاصي ، ونعمته للمؤمن ، ونقمته على الكافر .

فهو مقدس في وجوده عن ملامسة ما أوجده ، ومجانبته ومواصلته ، لأنه كان ولا كون ، وهو الآن كما كان[1] لا يتصل بكون ، ولا ينفصل عن كون ، لأن الوصل والفصل من صفات الحدوث ، لا من صفات القدم ، لأن الإتصال والإنفصال يلزم منه الإنتقال والإرتحال ، ويلزم من الانتقال والارتحال : التحول والزوال ، والتغير والاستبدال ، هكذا كله من صفات النقص ، لا من صفات الكمال ، فسبحانه : سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً .

ثم جعل اللوح والقلم ، بمنزلة كتاب الملك ، وما يسطر فيه من أحكامه ، وما حكم بنقضه وإبرامه ، وإيجاده واعدامه ، وما يخرج من بره وأنعامه ، وما يكون من ثوابه وانتقامه .

ثم جعل سدرة المنتهى بمنزلة غصن من أغصان هذه الشجرة ، بقوم تحتها من يقوم بخدمته ، وينفذ أحكامه ، ويرفع إليه ما يحمل من ثمرة هذه الشجرة وما يدانيها .

ثم يتلقى هناك من نسخة كتاب الملك ، الذي هو اللوح المحفوظ ، وما يحدث في هذه الشجرة من محو وإثبات ، ونقص وزيادة ، فلا يتجاوز تلك الشجرة ، إذ لكل واحد منهم حد مفهوم ، وحظ مقسوم ، ورسم مرسوم ﴿**وما منا إلاّ له مقام معلوم**﴾ ولا يرفع شيء من ثمرة هذه الشجرة ، من دني أو سني ، أو صغير أو كبير ، أو جليل أو حقير ، أو قليل أو كثير ، إلاّ ختم عليه في كتاب ﴿**لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها**﴾ ثم يأمرهم الملك أن يدفعوا إلى إحدى خزانتيه اللتين أدخرهما لثمرة هذه الشجرة ، وهما : الجنة والنار .

---

(١) قال رسول الله (ص) . «كان الله ولا شيء معه» رواه مسلم والبخاري ، ونافع بن زيد الحميري بألفاظ مختلفة والمعنى واحد .

فما كان من ثمر طيب ، ففي خزانة الجنة ﴿**كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين**﴾ .

وما كان من ثمر خبيث ففي خزانة النار ﴿**كلا إن كتاب الفجار لفي سجين**﴾ .

فأما الجنة فدار أصحاب اليمين ﴿**من جانب الطور الأيمن من الشجرة المباركة**﴾ الطيبة[1] .

وأما النار فدار أصحاب الشمال ، من الشجرة الملعونة في القرآن .

ثم جعل الدنيا مستودع زهرتها ، والآخرة مستقر ثمرتها ، وأحاط على هذه الشجرة حائط إحاطة القدرة ﴿**والله بكل شيء محيط**﴾ وأدار عليها دائرة الإرادة ﴿**يفعل ما يشاء ويحكم ما يريده**﴾ .

فلما ثبت أصل هذه الشجرة ، وثبت فرعها : التقي طرفاها ، ولحق أخراها بأولاها ﴿**إلى ربك منتهاها**﴾ إلى مبتداها ، لأن من كان أوله «كن» كان آخره «يكون» ، فهي وإن تعددت فروعها ، وتنوعت زروعها ، فأصلها واحد ، فهي حبة كلمة «كن» وسيكون آخرها واحداً وهي كلمة «يكون» .

فلو أحدقت ببصر بصيرتك لرأيت أغصان شجرة طوبى ، معلقة بأغصان شجرة الزقوم ، و برد نسيم القرب ، يمازج حر السموم ، وظل سماء الوصل متصل بـ ﴿**ظل من يحموم**﴾ وقد تناول كل حظه المقسوم .

فواحد يشرب بكأسه المختوم[2] .

---

(١) شجرة لا إله إلاّ الله .

والشجرة الملعونة هي شجرة الشرك وثمرها الزقوم ، والعياذ بالله .

(٢) لقوله تعالى : ﴿من رحيق مختوم﴾ .

وواحد يشرب بكأسه المحتوم[1] .

وواحد من بينهم محروم .

فلما برزت أطفال الوجود ، من حضرة العدم ، هبت عليهم نسمات القدرة ، وغذتها لطائف الحكمة ، وأمطرتها سحائب الإرادة ، بعجائب الصنع ، فأنبت كل غصن منها ما سبق له في القدم ، وركب في عنصره من الصحة والسقم .

والكون كله من عنصرين ، مستخرجين من جزءين من كلمة «كن» ، وهما : الظلمة والنور .

فالخير كله من النور .

والشر كله من الظلمة .

فملأ الملائكة موجود من عنصر النور[2] ، فكان منهم الخير ﴿لا يعصون الله ما أمرهم﴾ .

وملأ الشياطين من عنصر الظلمة ، فكان منهم الشر .

وأما آدم وبنوه ، فإنهم جعلت طينتهم من الظلمة والنور ، وركب عنصره من الخير والشر ، والنفع والضر ، وجعلت ذاته قابلة للمعرفة والنكرة[3] ، فأي جوهر غلب عليه نسب إليه .

فإن علا جوهر نوره على جوهر الظلمة ، وظهرت روحانيته على جسمانيته ، فقد فضل على الملك ، وعلا على الفلك .

وإن غلب جوهر ظلمته على جوهر نوره ، وظهرت جسمانيته

---

(١) كأس العذاب ، كفانا الله شره .

(٢) قال رسول الله (ص) : «خلقت الملائكة من نور ﴿وخلق الجان من مارج من نار﴾ ، وخلق آدم مما وصف لكم» رواه الإمام أحمد ومسلم (رضي الله عنهما) .

(٣) بضم النون المشددة .

على روحانيته ، فقد فضل على الشيطان[1] .

فلما قبض الله آدم من قبضة تراب «كن» ، مسح على ظهره - حتى يميز الخبيث من الطيب - فاستخرج من ظهره من كان من أصحاب اليمين ، فأخذوا ذات اليمين ، واستخرج من ظهره من كان من أصحاب الشمال ، فأخذوا ذات الشمال .

وما زاغ أحد عن المراد وما مال .

ومن قال : لم ؟ فقد أخطأ في السؤال [2] .

فأول من عمل حوالي هذه الشجرة إلى أصل حبة «كن» فاعتصر صفوة عنصرها ، ومخضها[3] حتى بدت زبدتها ، ثم صفاها بمصفاة الصفوة ، حتى زال وخمها[4] ، ثم ألقى عليها من نور هدايته حتى ظهر جوهرها ، ثم غمسها في بحر الرحمة ، حتى عمت بركتها ، ثم خلق منها نور نبينا محمد (ص) ، ثم زين بنور الملأ الأعلى حتى أضاء وعلا ، ثم جعل ذلك النور : أصلاً لكل نور ، فهو أولهم في المسطور[5] وآخرهم في الظهور[6] وقائدهم في النشور ، ومبشرهم بالسرور[7] ، ومتوجهم بالحبور ، فهو مستودع في ديوان الأنس ، مستقر في رياض الأنس[8] .

---

(١) أي زاد عليهم في الفساد .

(٢) أي من قال : لم فعل الله ذلك ؟
سبحانه لا يسأل عما يفعل .

(٣) مخفض الشيء : استخرج خلاصته .

(٤) الوخم : القذر .

(٥) ما سطر وهو معنى : التقدير .

(٦) الايجاد الفعلي .

(٧) للحديث الذي ورد فيه : «أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا ، وأنا خطيبهم إذا وفدوا ، وأنا مبشرهم إذا ايسو . لواء الحمد يومئذ بيدي ، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ، ولا فخر» رواه الترمذي .

(٨) الأولى بكسر الهمزة لأنه من بني آدم ، والثانية بضم الهمزة من الإيناس . اللّهم أجعلنا =

وحضرة الأنس ، ستر معنى روحـانيته بستـر جسمانيتـه ، وغطى عـالم شهوده بعـالم وجوده ، فهـو مستخـرج في الكـون ، مستنبط لأجله الكون ، وذلك أن الله تعالى كون الأكوان إقتدارا عليها لا إفتقاراً إليهـا ، وكمال حكمته في التكوين ، لأظهار شرف الماء والطين ، فإنـه أوجد مـا أوجـد ، ولم يقل في شيء من ذلـك : ﴿**إني جاعـل في الأرض خليفة**﴾ وكـان وجود الأدمي ، فكـانت حكمتـه في وجـود الآدمي لإظهـار شـرف النبي (ص) ، لأنـه حكمة الأجسـاد لاستخراج نـاف الكنزيـة «كنت كنزاً مخفياً لا أعرف» فكان المقصود في الوجود ، معرفة مـوجدهم سبحـانه ، وكـان المخصـوص بـأتم المعـارف : قلب سيـدنـا محمـد (ص) ، لأن معارف الكل كانت تصديقاً وإيماناً ، ومعرفته (ص) مشاهدة وعياناً .

وبنور معرفته (ص) تعرفوا ، وبفضله عليهم اعترفـوا ، فاستخـرجه من لباب حبة «كن» ﴿**كزرع أخرج شطأه فآزره**﴾ بصحـابته ﴿**فـاستغلظ**﴾ بقرابته ﴿**فاستوى على سوقه**﴾ بصحة ذوقه وقوة توقه وشوقه .

فلمـا ظهر هـذا الغصن المحمدي ، وسمـا : أورق عـوده ونمـا ، وأنهـل عليه سحـاب القبول وهمي ، وتبـاشر بـظهوره الحـدثان ، وبشـر بوجوده الثقلان ، وتعطرت بقدومه الأكـوان ، وانتكست بمولـده الأوثان ، ونسخت بمبعثه الأديان ، ونـزل بتصديقـه القرآن ، واهتـزت طربـاً شجرة الأكوان ، وتحرك مـا فيها من الألـوان والعيدان ، وكـان من أغصان هـذه الشجرة : من أخذ ذات الشمال ، ومال يهوي الضلال .

فلمـا أرسلت ريـاح الإرسـال بـرسـالـة ﴿**ومـا أرسلنـاك إلاّ رحمـة للعـالمين**﴾ استنشقهـا من ﴿**سبقت لهم منـا الحسنى**﴾ فمـال إليـهـا متعـطفاً ، وأمـا من كان مـزكومـاً ، أو من خلع القبول محـرومـاً ، فـإنـه عصفت به عواصف القدرة ، فأصبح بعد نضارته يـابساً ، ووجـه سعادتـه عابساً ، وراح من رجاء فلاحه قانطاً آيساً .

---

= في أنسه وإيناسه (ص) في الدنيا والآخرة .

وكان سر هذا الغصن لقاح شجرة الجود ، ودرة صدفة الوجود ، وكان من روح روحانيته روح ﴿**يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً**﴾ فهو مصباح ظلمة الكون ، وروح جسد الوجود ، لأن الله تعالى لما خاطب السموات والأرض ، وقال لهما : ﴿**ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين**﴾ فأجابه موضع الكعبة من الأرض ، ومن السماء ما يحاذيه[1] ، فكانت تربة بقعة الكعبة ، وكان محل الإيمان من الأرض .

فلما أمر الله بالقبضة التي قبضت من الأرض لخلق آدم (ع) .

فقبضت من سائر الأرض ، من طيبها وخبيثها ، فكانت طينة نبينا محمد (ص) مخلوقة من موضع الكعبة ، التي هي محل الإيمان بالله تعالى .

ثم عجنت تلك الطينة بطينة آدم (ع) ، فكانت تلك الطينة بمنزلة الخميرة ، ولولا ذلك لما أطاقوا الإجابة يوم الأشهاد ، وهو معنى قوله (ص) :

«كنت نبياً وآدم بين الماء والطين»[2] :

فكانت ذرات الوجود وبركته : من ذرة وجوده .

فلما أشهدهم على أنفسهم في حضرة شهوده ، قال : ﴿**ألست بربكم قالوا بلى**﴾ فسرت في أجزاء ذراتهم تلك الخميرة النبوية ، فانطلقت بإذن الله تعالى ألسنتهم بالتلبية ، قائلة[3] .

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره :

«وقيل أن المتكلم من الأرض بذلك هو مكان الكعبة ، ومن السماء ما يسامتها» ا . هـ .

(٢) وقال (ص) : «كنت نبياً ، ولا آدم ، ولا ماء ولا طين» .

(٣) هي هكذا في الأصل الذي راجعنا عليه ، والمعنى : متكلمة وناطقة .

فمن كانت طينته قابلة للتخمير بما سبق في التقدير : بقي معه ذلك التخمير باقياً فيه ، مستصحباً حتى ظهر إلى الحس ، وظهر في تلك الصورة ، فبرز ذلك المعنى محققاً لتلك الدعوى ، فأشرق نور ذلك المعنى الروحاني على ما يحاذيه من لجسد الجسماني ، فأشرق الجسد بعد ظلمته ، فاستنارت الجوارح لرشدها فعملت بالطاعة .

وأما من كانت طينته خبيثة ، غير قابلة للتخمير ، وإنما أثرت تلك الخميرة مقدار ما اعترف عند الأشهاد ، وافصحت في ذلك لأقرار في حال الاستقرار ، ثم طال عليها الأمد ، ففسدت تلك الخميرة بفساد تلك الطينة ، فكأنه كان مستودعاً ، فاسترجع منه ما استودع إذ لم يكن لحفظها أهلاً ، فهو مستودع ـ أعني الإيمان ـ في قلوب الكافرين[1] مستقر في قلوب المؤمنين وهو معنى قوله (ص) : «كل مولود يولد على الفطرة»[2] التي فطر الله الناس عليها ، وهو تساويهم في الإيمان ، في قول، ﴿ألست بربكم قالوا بلى﴾ واستووا في التلبية ، ونطقوا بالإجابة لسريان تلك الخميرة النبوية في أجزاء ذراتهم ، وقد سبق في علم الله ونفذ تقديره ، فمن تبقى على ذلك الإقرار : لا يستحيل إلى الجحود والإنكار ، وكل ما يحدث في شجرة الكون ، من نمو وزيادة ، وأزهار وإثمار أفكار ، ومتشابه شوق ، ومحكم ذوق ، وصفاء أسرار ، ونسيم استغفار ، وما ينمو به من الأعمال ، وتزكو به الأحوال ، وما تورق به من رياضات النفوس ، ومناجاة القلوب ، ومنازلات الأسرار ، ومشاهدات الأرواح ، وما ينبت به من أزاهير الحكم ، ولطائف المعارف ، وما يصعد من طيب الأنفاس ، وما يعقد من ورق الأيناس ، وما ينشأ من رياح الإرتياح ، وما يبني على أصلها من مراتب أهل الاختصاص ، ومقامات الخواص ، ومنازلات الصديقين ، ومناجاة المقربين ، ومشاهدات المحبين .

---

(١) لقوله تعالى : ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم﴾ .

(٢) رواه الطبراني ، وأبو يعلى ، والترمذي وغيرهم .

كل ذلك من لقاح الغصن المحمدي ، متوقد من نوره ، مستمد من نماء نهر كوثره ، مغذي بلباب بره[1] ، مربي في مهد هدايته ، فلذلك عمت بركاته ، وتمت على الخلائق رحمته ﴿**وما أرسلناك إلاَّ رحمة للعالمين**﴾ فلما مهد لأجله الدار ، وسخر من أجله الليل والنهار ، ورسم الرسوم ، وحدد الأقطار ، ونوه بذكره ، ونبه على سره وقدره ، وأخذ الميثاق على تصديقه[2] ، والتمسك بحبل تحقيقه ، جلا عروس شريعته على أتباعه وشيعته ، ثم ختم بنبوته الأنبياء ، وبكتابه الكتب ، وبرسالته الرسل .

فمن احتمى بحمى شريعته : سلم ، ومن استمسك بحبل ملته عصم .

لما توسل به آدم (ع) [3] : سلم من الملام ، ولما انتقل إلى صلب إبراهم الخليل صارت النار عليه برداً وسلاماً[4] ولما أودعته

---

(١) بكسر الباء ، وتشديد الراء المكسورة أيضاً ـ من البر والرحمة والحنان والعطف ـ .

(٢) إقرأ الآية : ٨١ من سورة آل عمران .

(٣) روى الحاكم في المستدرك وصححه ، عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله (ص) :

«لما اقترف آدم الخطيئة قال : يا رب أسالك بحق محمد (ص) لما غفرت لي .

فقال : يا آدم ، وكيف عرفت محمداً ولم أخلقه ؟

قال : يا رب ، لأنك لما خلقتني بيدك ، ونفخت في من روحك ، رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوباً لا إله إلاَّ الله محمد رسول الله ، فعرفت أنك لم تضف إلى اسمك إلاَّ أحب الخلق إليك .

فقال : يا آدم ، صدقت ، إنه لأحب الخلق إلي ، إذ سألتني بحقه فقد غفرت لك ، ولولا محمد ما خلقتك» .

ورواه البيهقي في دلائل النبوة ، وكذلك رواه الطبراني . وزاد فيه : «وهو آخر الأنبياء من ذريتك» .

(٤) قال (ص) : «كنت وآدم في الجنة في صلبه ، وركب بي السفينة في صلب أبي نوح . وقذف بي في النار في صلب إبراهيم» إلى آخر الحديث ، قال السيوطي في الجامع الكبير رواه ابن عساكر عن ابن عباس وقال : غريب جداً ، ا هـ . =

صدقة إسماعيل فدي بذبح عظيم ، فثمرة غصن أصحاب اليمين ﴿يحبهم ويحبونه﴾ وثمرة غصن أصحاب الشمال ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ وثمرة غصن السابقين المقربين ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ .

فبركته على الآفاق قد عمت ، وكلمته قد تمت .

خلق آدم على صورة اسمه ، لأن اسمه محمد ، فرأس آدم دائرة بتدويرة على صورة الميم الأولى من اسمه ؛ وإرسال يده مع جنبه على صورة الحاء ، وبطنه على صورة الميم الثنية ، ورجلاه في انفتاحهما على صورة الدال .

فكمل خلق آدم على صورة اسم محمد (ص) .

وقولنا : «كون الأكوان على هيئة رسمه» لأن العالم : عالمان : عالم الملك وعالم الملكوت .

فعالم الملك كعالم جسمانيته . وعالم الملكوت كعالم روحانيته .

---

= والحديث الغريب هو : «ما ينفرد بروايته شخص واحد» .

ومعنى قول النبي (ص) في الحديث الذي رواه أبو نعيم في الدلائل ، وابن لال ، وابن أبي حاتم في تفسيره ، والديلمي من طريق ابن لال ، وهو حديث مرفوع . رواه البخاري في التاريخ ، والإمام أحمد ، والبغوي ، وابن السكن ، وصححه الحاكم ، والترمذي ، وقال : حسن صحيح : «كنت أول النبيين في الخلق ، وآخرهم في البعث» معناه أنه كان أولهم في التقدير ، وآخرهم في البعث .

ونحن إذا رجعنا إلى لغة العرب أرحنا واسترحنا ، قال في القاموس المحيط «الخلق : التقدير» ، ثم قال : خلق النطع والأديم خلقاً وخلقة ، بفتحها : قدره وحزره أو قدره قبل أن يقطعه ، فإذا قطعه : قيل : فراه .

ومن هنا نعرف أن معنى كلمة «الخلق» في الحديث صحيحة لأنها على معنى التقدير ، والخلق أيضاً الايجاد والصنع . ونعرف أن هذه الهرطقة التي يثيرونها كل حين ، إنما هي إما أن تكون نتيجة الغباء المستحكم ، أو يريدون بها نسف لغة العرب لتتمكن لغة الجهل .

فكثيف العالم السفلي ككثيف جسمانيته ، ولطيف العالم العلوي كلطيف روحانيته .

فما في الأرض من الجبال التي جعلت في الأرض أوتاداً فهي بمنزلة جبال عظامه التي جعلت أوتاد جسده .

وما فيها من بحار مسجورة ، جارية وغير جارية ، عذبة وغير عذبة ، فهي بمنزلة ما في جسده من دم جار في تيار العروق ، وساكن في جداول الأعضاء .

واختلاف أذواقها ، فمنها ما هو عذب ، وهو ماء الريق يطيب بعجينه المآكل والمشارب .

ومنها ما هو : مالح ، وهو ماء العين بحفظه شحمة العين .

ومنها ما هو : مرّ ، وهو ماء الأذن لصيانة الأذن من حيوان ودبيب يصل إليها ، فيقتله ذلك الماء .

ثم في أرض جسده ما ينبت كالأرض الجرز ، والأرض السبخة التي لا تنبت ، ويستحيل النبت فيها .

ثم لما كان في الأرض بحار عظيمة ، تتفرع منها أنهار وسواق ، لنفع الناس بها ، كذلك في أرض جسده عروق غلاظ ، كالوتين الذي يبث الدم ، وتستمد العروق منه ، إلى سائر الجسد ،

ثم العالم العلوي ، وهو عالم السماء : جعل الله فيه شمساً كالسراج ، يستضيء به أهل الأرض ، كذلك جعلت الروح في الجسد ، يستضيء بها الجسد .

فلو غابت بالموت ، لأظلم الجسد كظلمة الأرض ، إذا غابت عنها الشمس .

ثم جعل العقل بمنزلة القمر : يستنير في فلك السماء ، تارة يزيد

وتارة ينقص ، فابتداؤه صغير ، وهو هلال كابتداء عقل الصغير في صغره ، ثم يزيد كزيادة القمر ليلة تمامة ثم يبدو بالنقص ، فهو بمنزلة بلوغ الأجل إلى تمام الأربعين ، ثم يعود في النقص في تركيبه وقوته .

ثم جعل في السماء كواكب خمساً ، وهي الخمس - الجوار الكنس - وهي بمنزلة الحواس الخمس ، وهي : الذوق ، والشم ، واللمس ، والسمع والبصر .

ثم جعل في عالم السماء عرشاً وكرسياً .

فالعرش أوجده وجعل وجهة قلوب عباده إليه ، ومحل رفع الأيدي إليه ، لا محلاً لذاته ، ولا مجانساً لصفاته ، لأن الرحمن تعالى اسمه : الإستواء نعته وصفته، ونعته وصفته متصلة بذاته ، والعرش خلق من خلقه ، لا متصل به ولا ملامس له، ولا محمول عليه، ولا مفتقر إليه.

وأما الكرسي فهو : وعاء أسراره ، وكنانة أنواره ومستودع ما في دائرة **﴿وسع كرسيه السموات والأرض﴾** فجعل الصدر بمنزلة الكرسي ، ولأن فيه تحصيل العلوم الصادرة ، بمنزلة الساحة على باب القلب ، والنفس يشرع منه بابان إليهما .

فما صدر عن القلب من خير ، أو عن النفس من شر ، فهو محصل في الصدر ، وعنه يصدر إلى الجوارح، وهو معنى قوله تعالى : **﴿وحصل ما في الصدور﴾** .

وجعل القلب بمنزلة العرش ، لأن عرشه في السماء معروف ، وعرشه في الأرض مسكون ، لأن عرش القلوب أفضل من عرش السماء ، لأن ذلك العرش لا يسعه ولا يحمله ولا يدركه ، وهذا عرش في كل حين ينظر إليه ، ويتجلى عليه ، وينزل من سماء كرمه إليه «ما وسعني سمواتي ولا أرضي ووسعني قلب عبدي المؤمن»[1] .

---

(١) قد استدل به الغزالي في الإحياء ، وعن المصطفى (ص) أنه قال : «إن لله آنية من أهل الأرض وآنية ربكم : قلوب عباده الصالحين» رواه الطبراني .

ولما جعل في عالم الآخرة جنة ونارا للنعيم والعذاب ، هذه خزانة الخير ، وهذه خزانة الشر ، كذلك جعل الخير الذي هو مكان سويداء القلب ، جعله جنة عبده المؤمن ، لأنه محل المشاهدة والتجلي والمناجاة ، والمنازلات ، ومنبع الأنوار ، وجعل النفس بمنزلة النار ، لأنها منبع الشر ، ومحل الوسواس ، وربع[1] الشيطان ومحل الظلمة .

ثم جعل اللوح والقلم : نسخة كتاب الكون والتكوين ، وما كان وما يكون إلى يوم الدين ؛ وجعل الملائكة تستنسخ ما يؤمرون بنسخه ، من محو وإثبات ، وموت وحياة ، ونقص وزيادة .

فكذلك اللسان بمنزلة القلم ، والصدر بمنزلة اللوح ، فما نطق به اللسان رقمته الأذهان في ألواح الصدور ، وما أرخته إرادة القلب إلى الصدر عبر عنه اللسان ، كالترجمان .

ثم جعل الحواس رسل القلب ، يستنسخ ما حصل فيها .

فالسمع رسول ، وهو جاسوسه ، والبصر رسول ، وهو حارسه ، واللسان رسول ، وهو ترجمانه .

ثم جعل في الإنسان ما هو دلالة على الربوبية ، وتصديق الرسالة المحمدية ، وذلك الهيكل الإنساني ، لما افتقر إلى مدبر ، وهو الروح ، وكان مدبره واحداً ، وكانت الروح غير مرئية ، ولا مكيفة ، ولا متحيزة في شيء من الجسد ، ولا يتحرك شيء من الجسد إلاَّ بشعورها به ، وإرادتها له ، لا يحس ولا يمس إلاَّ بها ، وكان ذلك كله دلالة على أن العوالم لا بد لهم من مدبر ومحرك ، ويلزم منه أن يكون واحداً ، عالماً بما يحدث في ملكه ، قادراً على حدوثه ، وإنه غير مكيف ، ولا متمثل ، ولا مرئي ، ولا متحيز ولا متبعض ، ولا

---

(١) بفتح الراء وسكون الراء : ومحل سكنه .

محســوس ولا ملمـوس ، ولا مقبــوس ، بــل ﴿ليس كمثله شيء وهــو السميع البصير﴾ .

ولمـا كـان رسـولـه إلى خلقـه اثنين : ظـاهـر وبـاطن ، .فـرسـولـه الظاهر : محمد رسول الله .

ورسوله الباطن : جبريل .

فجبـريل يـأتيه بـالوحي بين قـومه ولا يحسـونـه ، ولا يعـرفـونـه ، فكـذلك كـان لمدير هذا الهيكـل الإنساني ، وهـو الروح رسـولان باطن وظـاهر ، فـالرسول الباطن هـو الإرادة ، بمنـزلـة جبـريـل ، يـوحي إلى اللسان ، واللسان يعبر عن الإرادة وهو بمنزلة سيدنا محمد (ص) .

ثم لما جعل فيك دلالة على صحـة نبوتـه وصدق رسـالته ، جعـل فيـك أيضاً دلالـة على ما جـاء بـه من تحقيق شـريعتـه ، واتبـاع سنتـه ، فكان أصل الأيـدي خمسة أشيـاء ، كل منهـا خمس :

**فـالأصـل الأول** : مـا بني عليـه ، فقـال رسـول الله (ص) : «بني الإسـلام على خمس : شهـادة ألا إلـه إلاَّ الله وأن محمـداً رسـول الله ، وأقـام الصلاة ، وإيتـاء الزكـاة ، وصـوم رمضـان ، والحـج إلى بيت الله الحرام»[1] .

**الأصل الثاني** : وكانت الصلاة المفترضة خمساً .

**الأصل الثالث** : الزكاة المفروضة في النصاب خمس .

**الأصـل الرابـع** : ﴿**محمـد رسـول الله والـذين معـه**﴾ أبـو بكـر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، فهم خمسة برسول الله (ص) .

**الأصل الخامس**: أهل البيت خمسة: مـحمــد (ص) ، وعـلي ، وفاطمة ، والحسن ، والحسين .

---

(١) رواه الترمذي ، والنسائي ، والطبراني في الأوسط ، وعبد الغني في «الايضاح» ، وهو حديث متفق عليه .

فلما كان أركان الدين : إقامة أركان شريعته ، ومحبة صحابته ، ومودة قرابته ، جعل في أعضائك منها دلالة على ذلك : خمسة ، فالخمسة التي بني الإسلام عليها بمنزلة الحواس الخمسة منك ، وهي : السمع ، والبصر ، واللمس ، والشم ، والذوق ، لأنك تجد بهذه الحواس مذاق كل شيء ، ومعرفة كل شيء .

وكذلك تجد بإقامة تلك الأركان الخمسة ذوق كل شيء ، وإدراك العرفان ، ومعرفة الرحمن ، وعلم الإيقان .

فحاسة البصر: تدعوك إلى إقامة أركان الصلاة ، قال (ص) : «جعلت قرة عينى فى الصلاة»[1] .

وحاسة اللمس: تدعوك لأداء الزكاة ، قال الله تعالى : ﴿**خذ من أموالهم صدقة**﴾ .

وحاسة الذوق : تدعوك إلى ترك ذوق الطعام ، لاقامة ركن الصيام .

وحاسة السمع : تدعوك إلى استماع الأذان ﴿**وأذن في الناس بالحج**﴾ .

وحاسة الشم :تدعوك إلى انتشاق أنفاس التوحيد «إني لأجد نفس الرحمن من قبل اليمن»[2] .

فهذه الحواس تدعوك إلى إقامة الأركان الخمس .

وجعل أصابعك الخمس في يمينك بمنزلة ـ محمد (ص) ، والذين معه ـ هم : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي .

---

(١) قال (ص) : «حبب إلي من دنياكم النساء والطيب ، وجعلت قرة عيني في الصلاة» رواه أحمد والنسائي ، والحاكم ، والبيهقي وغيرهم .

(٢) رواه الإمام أحمد من حديث أبي هريرة ورجاله ثقاة .

وإن آدم (ع) : لما خلق نور سيدنا محمد (ص: في جبينه ، كانت الملائكة تستقبله ، وتسلم على نور محمد (ص) ، وآدم (ع) لم يره ، فقال : يا رب أحب أن أنظر إلى نور ولدي محمد (ص) فحوله إلى عضو من أعضائي لأراه ، فحوله إلى سبابته ، في يده اليمنى ، فنظر إليه يتلألأ في مسبحته ، فرفعها فقال : أشهد أن لا إله إلاّ الله ، وأن محمداً رسول الله ، فلذلك سميت المسبحة .

فقال : يا رب هل بقي في صلبي من هذا النور شيء ؟ قال : نعم ، نور أصحابه ، وهم : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، فجعل نور علي في إبهامه ، ونور أبي بكر في الوسطى ، ونور عمر في البنصر ، ونور عثمان في الخنصر .

وقيل : إنما جعلت في يدك لتقبض برؤوسهم على حب هؤلاء الخمسة ، ولا تفرق بينهم وبين محمد (ص) ، فإن الله جمع بينهم بقوله تعالى : ﴿**محمد رسول الله والذين معه**﴾ .

ثم جعل أصابعك الخمس في اليد اليمنى : مذكرة بالخمسة أشباح ، وهم أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس بقوله : ﴿**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس**﴾ .

قال رسول الله (ص) :

«أنزلت هذه الآية فينا أهل البيت أنا وعلي وفاطمة والحسن والحسين»[1] .

ثم جعل أصابع قدميك الخمس مشيرة لك ، مذكرة بالخمس صلوات التي أفترضها الله عليك ، فتقوم بها على قدميك ، لأنها خدمة الله تعالى في الأرض ، والخدمة إنما تكون من القدمين ، فلذلك جعلت قدمك اليمنى مذكرة بالصلوات الخمس ، وأصابع قدمك اليمنى

---

(١) رواه ابن جرير ، راجع ابن كثير جـ ٣ ص ٤٨٥ طبع الحلبي .

تذكرك بما يجب من نصاب الزكاة ، وهي خمس دراهم .

فالزكاة مقرونة بالصلاة ، فلذلك كانت أصابع القدمين إشارة إلى الصلاة والزكاة .

ثم جعل فيك : ما يدل على الموت والبعث ، وما يدل على نعيم القبر وعذابه ، وهو النوم ، وما يراه النائم من منام سيء ، فيتعذب به فيصير بالنوم كالميت ، فاقد الحس فلا سمع له ، ولا بصر له ، ولا إدراك له .

ثم جعل له سمعاً وبصراً وإدراكاً ، فيسمع ويبصر بسمع وبصر عن سمعه وبصره .

ويرى نفسه تذهب حيث تشاء ، ويأكل ويشرب ، فهي بمنزلة ما يراه الميت في قبره من النعيم والعذاب ، في مدة البرزخ بين الموت والبعث .

ثم يوقظك الله من نومك : لا عن مرادك ولا عن اختيارك .

فلو أردت أن لا تنتبه من ذلك ، فأنت تطيق أن لا تبعث ؟[1] .

وهذا تكذيب من أنكر البعث بعد الموت وجهله ، وهم الزنادقة ، والدهرية ، والفلاسفة[2] ، ورد على من أنكر عذاب القبر ونعيمه ومسألته، وهم المعتزلة .

ثم اعلم أن الله تعالى خلق خلقه على ثلاث أصناف ، فقال تعالى : ﴿والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشي على بطنه﴾

---

(١) هذا إرجاع منه (رضي الله عنه)، إلى حقيقة أمرك أيها الإنسان إذ هو بمثابة من يقول لك : إذا كنت تستطيع ألا تقوم من النوم ، فأنت أيضاً تستطيع الا تبعث ، وهذا محال في الجميع ، وليس لك قدرة لا في النوم ، ولا في اليقظة ، ولا في الموت ، ولا في الحياة .

(٢) وهذا دليل على أنه بريء من الفلسفة التي الصقرها به (رضي الله عنه) .

كالحيات والديدان ﴿ومنهم من يمشي على رجلين﴾ كالطير والآدمي ﴿ومنهم من يمشي على أربع﴾ كالدواب .

فمنهم صنف كالساجد ، وصنف كالراكع ، وصنف كالقائم .

فالقائم كالأشجار والجدران : لا يطيقون ركوعاً .

والراكع كالدواب : لا يطيقون سجوداً ولا قياماً .

والساجد كالحشرات : لا يطيقون رفعاً .

وكلهم مخلوقون لطاعته وتقديسه وتنزيهه ﴿وإن من شيء الا يسبح بحمده﴾ .

فجمع سبحانه لك سائر عبادات خلقه وطاعتهم : وبسط لك في خلقه : إن شئت أن تعبده قائماً وراكعاً وساجداً فعلت ، ليجمع لك فضيلة جميع خلقه .

فكذلك فرض عليك الصلاة ، وجعلها تشتمل على سائر عبادة خلقه .

فكذلك فضيلة القوم والركع والسجد .

وأنت المقصود من كل الوجود .

وأنت خاصة العبيد لمراد المعبود .

فهذا معنى قولنا متقدماً ـ خلق الله آدم (ع) على صورة اسم محمد (ص) ، وخلق الكون على هيئة رسمه ، وأعلم أن الملأ الأعلى مسخرون في نفع شجرة الكون ، مستعملون لمصالحها ، قائمون بحقوقها لما فيها من خاصية هذا الغصن المحمدي ، والنور الأحمدي .

فأول ما انسلخ نهار الوجود من ظلمة ليل العدم ، شعشعت أنوار الشموس المحمدية في أفق جبين آدم (ع) ، فخرجت الملائكة سجداً

وقالوا :

مليك[1] العرش محمد أبداً .

فلما أمروا بالسجود فسجدوا ، وخصوا بالشهود فشهدوا ، وقيل لهم : شكران هذه المشاهدة أن تقوموا على قدم المجاهدة في خدمة شجرة هو أصلها ، ودولة هو عقدها وحلها .

فليكن منكم السفرة : يسعون بالصحف المطهرة .

وليكن منكم البررة : يطوفون حول حمى هذه الشجرة .

وليكن منكم الحملة : يحملون لكل عامل عمله .

وليكن منكم الكتاب : يقومون على أعتاب من قد تاب .

وليكن منكم من يغسل وجوههم من غبار الأوزار ، بماء الاستغفار ﴿**ويستغفرون لمن في الأرض**﴾ [2] .

وليكن منكم الحفظة : يحفظون عليهم أعمالهم ، ويحصون ما عليهم وما لهم .

وليكن منكم من يسعى في أرزاقهم : ليتفرغوا لطاعة رازقهم .

فقوم : يرسلون الرياح .
وقوم : يسيرون السحاب .
وقوم : يسجرون البحار .
وقوم : ينزلون ماء الأمطار .

---

(١) المليك هو : الملك ، ومنها «مليك البلاد» أي الذي ملكوه برغبتهم لحبهم له ، والمقصود بالعرش هنا : عرش المملكة الإنسانية التي شرح كواكبها وأورضها وسماءها ، لا العرش المعروف ، والله تعالى أعلم .

(٢) سورة الشورى ؛ الآية : ٥ ، والمقصود بهم المؤمنون لا كل من في الأرض ، إذ قال ربنا تبارك وتعالى في آية أخرى : ﴿**ويستغفرون للذين آمنوا**﴾ وهو ما يعبر عنه بأنه : تخصيص بعد تعميم . والله أعلم .

وقوم : يحفظون الأقطار .

وقوم : يغشون الليل .

وقوم : يسبحون النهار .

وقوم : معقبات يحفظون الجوارح من الموبقات .

وقوم : يرفعون الأفات .

وقوم : يزخرفون الجنان .

وقوم : يسعرون النيران .

فلما تمهدت الدار ، ودار كأس إرادته فاستدار ، فأول ما استحضر إلى ذلك المحضر إبليس ، وهو يرفل في ثياب التسبيح والتقديس ، لكنها محشوة بأدغال التدليس .

فلما حضر إلى ذلك المحضر ، وشاهد جمال ذلك المنظر ، ووقف على عرفات المعفرفة فأنكر ، وأصر على العصيان وأضمر ، واستصغر حق هذا الماء والطين واستحقر .

فلما قيل له : اسجد في صفاء كاساتك ، فأبى واستكبر ، فتجاوز الكأس ، وفاتته صحبة الأكياس ، وبقي في ظلمة الغم والوسواس ، وفتش أكياس[1] علمه وعمله ، فإذا هي فلوس أكياس[2] ، فبقي منقطعاً في مفازة القطيعة ، قاطعاً للشيعة والشريعة[3] ، كلما تزايد كربه ، وتعاظم عليه ضربه ، يستغيث بلسان ﴿فلأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم﴾ والقدر يقول : لأكتبن لهم منشور الأمان ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ فسأل المالك الأنظار[4]

---

(١) الأكياس الأولى : العقلاء ، والثانية : جمع كيس : ما يوضع النقود .

(٢) يعني أكياس مفلسة : من باب المقلوب ـ والله تعالى أعلم .

(٣) شيعة الحق وشريعة الله تعالى .

(٤) ﴿قال أنظرني إلى يوم يبعثون﴾ أراد الخبيث أن ينجو من الموت ، فرد عليه الله تعالى : ﴿إنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم﴾ فحزن أشد الحزن ، لما علم أن ملك سيصرعه .

فانظر ، ليكون قائد الكفار إلى النار ، عكازة يعتمد عليها ذوو الذنوب والأوزار ، فإذا زل أحدهم قال : ﴿إنما استزلهم الشيطان﴾ وإن عمل قال : ﴿هذا من عمل الشيطان﴾ .

فلما اقتحم آدم وإبليس عقبة المعصية ، هذا بترك ما أمر به ، وذاك بفعل ما نهي عنه ، جمع بينهما القدر إذ قدر ، لأنه تعالى أمر ، وأراد خلاف ما أمر ، فما وهبه الأمر سلبته الإرادة[1] .

فلما تعدياها : حكم لإبليس أن لا يتعداها .

وطنب[2] الشقي فيها خيامه ، وجعل في عرصتها مقامه .

وأما آدم فإنه حن إلى دار المقامه ، وتذكر لياليه وأيامه ، فعاد على نفسه بالملامة ، فنادى بين ندماء الندامة ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا﴾ فتلقى بشير قربته بتفريج كربته ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات﴾ .

وأما الشقي إبليس فانطلقت إليه خيول اللعنة ، مطلقة الأعنة ، تبشره بطرده وبعده ، فأخرج منها مأموراً ﴿قلنا أهبطوا﴾ فتقلقل آدم قلقاً ، وكاد أن يتمزق حرقاً ، وقال : سيدي جرعت مرارة الصدود في الصعود ، فأعذني من حرارة القنوط في الهبوط .

فقيل له : لا بأس عليك حتى تصل إلى مفرق فريقين ﴿فريق في الجنة وفريق في السعير﴾ .

فأخذ آدم ذات اليمين ، وأخذ إبليس ذات الشمال ، فكان أصلاً لأصحاب الشمال ، لكنهما لما أصطحبا واجتمعا ، فكان للصحبة أثر ، فكان محله من آدم وسيره معه مما يلي شماله[3] ، فأثر ذلك على ما

---

(١) ردك الشيخ (رحمه الله تعالى) إلى قواعد علم التوحيد ، فارجع إليها تجد هذه المسألة مبسوطة هناك .

(٢) شد طنب خيامه ، الطنب : جمع أطناب . وهو حبال الخباء التي يشد بها .

(٣) ولذلك إذا رأى المسلم رؤيا لا تسره ، فإنه يستعيذ بالله ويتفل عن شماله ، لأنه موقف شيطانه منه ، والله تعالى أعلم .

كـان في أصله من الصفح الأيسـر ، فبرحـوا في ظـل ظلمـة مخـالفتـه ، فكفروا بقربهم منه ومحاذاتهم له .

وبقي من كـان في الصفح[1] الأيمن في نـور معرفـة آدم ، فسلموا من ظلمة إبليس ، لبعدهم عنه .

وأثر عليهم جوار من كفـر ، واستظلوا بـظلمة ضـلاله ، وهم أهـل الصفح الأيسر .

وأثـر ذلـك في صفـاتهم ، وسلمت لهم أنـوار ذواتهم ومعـارفهم ، فما يرتكبه أهل الصفح الأيمن من المعاصي والأوزار ، هـو من أثر ذلـك الجوار ، وأشعة ذلك العذار[2] .

وأعلم أنه كان لذلك الأثر أصل آخـر ، وسبب آخر ، وهـو أنه لمـا أمـر الله تعـالى بقبض القبضـة التي خلق منهـا آدم (ع) ، فهـبط ملك الموت لذلك ، وكان إبليس يـومئذ في الأرض ، قـد استخلفه الله تعـالى فيهـا مع جملة من المـلائكـة ، وقـد مكث زمـانـاً طـويـلاً ، يعبـد الله ، فقبض ملك المـوت القبضـة من سـائـر الأرض ، وكـان إبليس يـطؤهـا بقـدمه ، فلمـا عجنت طينة آدم وصـورت صورتـه من تلك الطينـة ، جاء خلق النفس من التـراب الـذي وطئـه إبليس بقـدمـه ، وخلق القلب من التـراب الـذي لم يـطأه إبليس بقـدمـه ، فـاكتسبـت النفس مـا فيهـا من الخبث والأوصـاف المـذمـومـة من مـلامسـة وطء إبليس ، ومن هنـا جعلت النفس مـأوى الشهوات ، وعيشـه وسلطانه عليهـا : لوطئـه لهـا ، ومن هنا جعل إبليس التكبـر على آدم ، حيث وجدهـا من تراب قـدمه ، ونظر إلى جوهر عنصره ، وهـو النار ، فـادعى الفخار حينئـذ ، ومال إلى الاستكبار .

---

(١) الجانب .

(٢) العذار هنا ـ والله أعلم ـ المقصود به الجـانب الآخر ، والأصـل فيه : الشـر النابت في موضع العذار .

وهكذا معنى قوله سبحانه وتعالى : ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان**[1]﴾ التي خلقت من تحت خطواته .

إعلم أنه لما نشأت شجرة الكون ، أنبتت أغصاناً ثلاثة : غصن ذات اليمين ، وغصن ذات الشمال ، وغصن نبت مستقيماً قويماً ، وهو غصن السابقين .

فكانت روحانية محمد (ص) قائمة بالثلاثة أغصان ، متعلقة بها ، سارية فيها ، لكل غصن نصيب على مقدار قابليته لتلك الروحانية ، قال الله تعالى : ﴿**وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين**﴾ .

فكان حظ غصن أصحاب اليمين : روحانية الهداية ، والمتابعة له والعمل بسنته وشريعته ، قال الله تعالى : ﴿**الذين يتبعون الرسول النبي الأُمي**﴾ الآية .

وكان حظ السابقين : روحانية القربى منه والزلفى لديه والصحبة له ﴿**فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين**﴾ الآية .

وكان حظ أصحاب الشمال من روحانية . حمايتهم في الدنيا ، وأمنهم من العقوبة المعجلة ﴿**وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم**﴾ الآية .

فلما آن أوان ظهور جسمانيته (ص) إلى الوجود ، نبت غصن وجوده مستقيماً قويماً .

فلما ثبت أصله ، ونبت فرعه : ناداه متولي سياسته ﴿**فاستقم كما أمرت**﴾ فكانت صفته (ص) : الإستقامة ، ومقامه دار المقامة .

فلما استقام : رحل عن الكونين .

ولما أقام : نقل من مقام إلى مقام ، حتى استقر به المنزل فأقام .

---

(١) هذا من المعاني الاشارية ، لا الموضوعية .

**فالمقام الأول** : مقام الوجود في الدنيا ، وهو قوله تعالى : ﴿**يا أيها المدثر * قم فأنذر**﴾ .

**والمقام الثاني** : المقام المحمود في الآخرة ، وهو قوله تعالى : ﴿**عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً**﴾ .

**والمقام الثالث** : مقام الخلود في الجنة ، وهو قوله تعالى : ﴿**الذي أحلنا دار المقامة من فضله**﴾ .

**والمقام الرابع** : المقام المشهود ، مقام قاب قوسين لرؤية المعبود ﴿**ثم دنا فتدلى * فكان قاب قوسين أو أدنى**﴾ الآية ، فهو المخصوص بالدنو والعلو ، والشهود إذ كان هو المقصود من كل الوجود ، لأن الوجود لما كان شجرة : كن هو ثمرتها ، وكان هو جوهرتها ، فالشجرة المثمرة إنما تثمر بالحبة التي ينبت بها أصلها ، فإذا غرست تلك الحبة ، وغذيت وربيت حتى نبتت وفرعت ، وأورقت ، واهتزت ، وأثمرت ، فإذا نظرت تلك الشجرة رأيتها في تلك الحبة التي نبت منها هذه الشجرة ، فالحبة في البداية : نطفة حتى أظهرت صورة الشجرة .

والشجرة في النهاية : بها ظهرت ، فأظهرت صورة تلك الحبة ، فكذلك بطونه (ص) في المعنى (في السابق) واختفاؤه وظهوره في الصورة (في اللاحق) واشتهاره ، وهو معنى قوله (ص) : «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين[1]» فكان هو مظهر معنى هذه الشجرة ، وهو مظهر صورته (ص) ، فما برح بلسان القدم مذكوراً ، وفي طي العدم منشوراً .

---

(١) وفي لفظ آخر : «كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد» رواه أبو نعيم عن ميسرة الفجر ، وابن سعد عن أبي الجدعاء ، وابن حبان عن ابن عباس وللحديث ألفاظ أخرى ورواه آخرون ، وهو حديث صحيح .

وما مثال ذلك إلاَّ مثال تاجر عمد إلى فراشه وبزه فطواه في خزانة ملكه ، وعباه أثواباً بعضها فوق بعض ، فأول ثوب دمجه وطواه ، هو آخر ثوب أظهره وأبداه . .

كذلك سيدنا محمد (ص) كان أولاً لكل : وجوداً ، وآخرهم ظهوراً وخروجاً[1] .

فلما تولى مقصار القدر سياسة هذا الغصن النبوي ، فغذاه بلباب بره : وسقاه بكأس محبته ، وحماه في قلة[2] حماه ، ورباه حتى اهتزت رباه ، وتفرعت نفحات شذاه ، فكانت تلك النفحات غذاء أرواح العارفين ، ونور بصائر المؤمنين ، وريحانة حضرة المحبين ، وعرصة مجمع العاصين ، وغياث مستسقي المذنبين .

فإن هب من تلقاء أصحاب الشمال سموم خطيئة ، أو عاصف معصية ، فأمال غصناً قد أنبته الله نباتاً ، فمال به إلى عمل من أعمال أهل الشمال تلاعب بفرعه ، وأثر ذلك في خضرة نضارة زرعه[3] ، لكن أصله في أرض الإيمان ثابت ، فما يضره ما حدث في فرعه النابت ، إذا تداركه صاحب سيئاته ، فحماه من ذلك الهوى ، وأماله إلى طريق الإستقامة بعد الطوي ، وسقاه بماء الاستغفار حتى ارتوى ، فهنالك يقبل منه ما نوى ، ويورق غصن إيمانه بعد مازوى ، ويقوم خطيب الأعتذار عنه ، وهو الصادق فيما نقل وروى ، ويقسم بـ **﴿النجم إذا هوى * ما ضل صاحبكم وما غوى﴾** .

---

(١) روى ابن سعد عن قتادة مرسلاً قوله (ص) : «كنت أول الناس في الخلق وآخرهم في البعث» وهو بالمعنى الذي قاله الشيخ(رحمه الله) .

(٢) القلة : بضم القاف : المكان المرتفع وقلة الجبل : أعلاه .

(٣) وهذا هو معنى قول رسول الله (ص) : «مثل كمثل المؤمن كمثل خامة الزرع من حيث أتتها الريح كفاتها ، فإذا سكنت اعتدلت» إلى آخر الحديث الذي رواه البيهقي .

ثم إعلم أن الغصن المحمدي قد حصل من روحانية ما هو مادة الأرواح ، ومن جسمانية ما هو مادة الأشباح .

فأما مادة روحانيته ، جوده في سر قوله تعالى : ﴿**الله نور السموات والأرض**﴾ إلى قوله تعالى : ﴿**مصباح**﴾ يعني مصباح نور نبينا محمد (ص) ، فقد جعله مصباح مشكاة الوجود ، فشبه الكون بالمشكاة ، وسيدنا محمداً (ص) بالزجاجة ، والنور الذي هو قلبه بالمصباح ، فأشرق نور باطنه على ظاهره ، كإشراق المصباح في الزجاجة ، فصار نور المصباح ناراً ، والزجاجة نوراً لصفائها ، فصار نوراً وكان حظ كل مخلوق من ذلك بحسب قربه منه واتباعه له ، والدخول في شيعته ، والعمل بشريعته ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿**نزل من السماء ماء بقدر**[1]﴾ فشبه الله تعالى حبيبه محمداً (ص) بالماء النازل من السماء بقدر ، لأن الماء حياة كل شيء ، وكذلك كان نوره (ص) حياة كل قلب ، ووجوده رحمة لكل شيء .

ثم بين انتفاع الناس بنوره ، وما نالهم من بركته (ص) بالأدوية فجعل القلوب أودية ، منها : الكبير والصغير ، والجليل ، والحقير .

فاحتمل كل قلب على قدر وسعه ومقدار مادته من الماء ، وتطرق السيل إليه ﴿**قد علم كل أناس مشربهم**﴾ ثم شبه جسمانيته بالزبد الرابي ، المحتمل على وجه الماء الصافي ، وهو مرباه الظاهر ، من : الأكل والشرب والنكاح ، ومشاركة الناس في أفعالهم وأحوالهم ، فذلك كله يذهب ويتلاشى ﴿**وأما ما ينفع الناس**﴾ من نبوته ، ورسالته ، وحكمته ، وعلمه ، ومعرفته ، وشفاعته ﴿**فمكث في الأرض**﴾[2] .

---

(١) هو معنى اشاري لأن الرسالة المحمدية ماء القلوب وحياتها ، والآية رقم : ١١ من سورة الزخرف .

(٢) أرض القلوب .

واعلم أنه إنما كانت حكمة خلقه كذلك ، أنه خلق من لطيف وكثيف ، ليكون كامل الخلق ، كامل الوصف ، خلقه الله تعالى من ضدين : جسماني وروحاني ، فجعل جسمانيته وبشريته لملاقاة البشر ، ومقايسات الصور ، فجعل له قوة يلاقي بها البشر ، فيمدهم بمادة بشريته ، فيكون معهم بهم ، فيكون هم لهم ﴿**إنما أنا بشر مثلكم**﴾ يجانسهم ويشاكلهم ، لأنه لو برز إليهم في هيئة روحانية ملكية نورانية ، لما أطاقوا مقابلته ، وما استطاعوا مقاومته ، فلذلك من الله تعالى بقوله : ﴿**لقد جاءكم رسول من أنفسكم**﴾ [(١)] .

ثم جعل له قوة وروحانية يقابل بها عالم الروحانيين ، وملكوت العلويين ، ليكون تام البركة ، تام الرحمة .

الروحانيون : يشهدون جسمانيته .

ثم جعل له وصف ثالث خاص ، خارج عن هذين الوصفين ، وهو أنه جعل فيه وصف رباني وسر إلهي يثبت به عند تجلي صفات الربوبية ، ويطيق به مشاهدة الحضرة الإلهية ، ويتلقى به أسرار أنوار الفردانية ، ويسمع به خطاب الإشارات القدسية ، ويستنشق به عطر النفحات الرحمانية ، ويعرج به إلى المقامات العذبة البهية ، وهو معنى سر [(٢)] قوله (ص) : «لست كأحد منكم» [(٣)] وقوله (ص) : «لي وقت لا

---

(١) اخر سورة التوبة .

(٢) لاحظ معنى قوله (رضي الله عنه) «معنى سر قوله» ولم يقل «معنى قوله» فهي منه (رضي الله عنه) إشارة إلى ما يقصد .

(٣) نص الحديث ـ كما في الجامع الكبير للسيوطي (رحمه الله تعالى) :
«إني لست مثلكم ، إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني» رواه الإمام احمد ، والبخاري ومسلم عن أنس بن مالك (رضي الله عنه) .
والبخاري عن عبد الله بن عمر .
والبخاري عن أبي سعيد .
وأحمد والبخاري عن عائشة .
والبخاري عن أبي هريرة .

يسعني فيه غير ربي سبحانه»[1] .

فهذا المقام : ليس يختص به ملك مقرب ، ولا نبي مرسل : كأس لم يتناوله سواه ، عروس ما جليت إلاّ عليه وهو هذا المقام المخصوص به ، وهو أحد المقامات الأربعة التي ذكرناها .

وأما الثلاثة الأُخر ، فإنها كرامات لسائر الخلق ، ليتناول كل منهم ما قسم له من النصيب .

**فأما المقام المحمود** : فمخصوص بعالم الصورة ، وهو عالم الملك في الدنيا ، فيتناولهم وجود طمأنينته وبركة نبوته ورسالته **﴿وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين﴾** أقيم على منبر **﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾** الآية .

فهو في الدعوة مجيبهم ، وفي النصيحة خطيبهم ، ومن الزلزلة طبيبهم ، ومن المحبة نصيبهم .

فهذا مخصوص بأهل الدنيا .

**وأما المقام الثاني** فهو : المقام المحمود في القيامة ، وذلك نصيب الملأ الأعلى ، فينالهم من بركة مقامه ، ومشاهدة جماله ، وسماع كلامه **﴿يوم يقوم الروح والملائكة﴾** الآية ، يؤذن له في الخطاب ، فيقوم خطيباً[2] ، والملائكة صفوفاً ، والخلائق وقوفاً ، فيفتح خطبته

---

(١) قال في المقاصد الحسنة : حديث : «إن لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب ، ولا نبي مرسل» : يذكره الصوفية كثيراً ، وهو في رسالة القشير لكن بلفظ «لي وقت لا يسعني فيه غير ربي» ويشبه أن يكون معناه في الشمائل .

ولابن راهويه في مسنده عن علي في حديث طويل : «كان (ص) إذا أتى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء : جزءاً لله تعالى ، وجزءاً لأهله ، وجزءاً لنفسه ، ثم جزء جزءاً بينه وبين الناس» .

(٢) قال رسول الله (ص) : «أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا ، وأنا خطيبهم إذا وفدوا ، وأنا مبشرهم إذا أيسوا ، لواء الحمد يومئذ بيدي ، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر» =

بالشفاعة لأمته ، ينادي : «أمتي أمتي» فيجيبه «رحمتي رحمتي» .

**وأما المقام الثالث** : فالشهــود وذلك في دار الخلود ، لينـال أهل الجنـة منه نصيبهم ، تتمتـع بمشـاهــدتـه الحــور ، وتتشـرف بحلولــه القصــور ، ويقدم لقـدومه السـرور ، وتزداد الجنـة نوراً ، وتـرفع بقـدومه الحجب وتزول الشرور .

**المقام الرابع** : هو المقـام الذي خص بـه (ص) ، وهو مقـام رؤية المعبود جلّ وعلا ، وهو مقام ﴿**قاب قوسين أو أدنى**﴾ .

وذلـك أنه لمـا كـان ثمـرة شجـرة الكـون ، ودرة صـدفـة الـوجـود وسره ، ومعنى كلمة «كن» ولـم تكن الشجـرة مرادة لـذاتها ، وإنمـا كانت مـرادة لثمـرتهـا ، فهي محمية محـروسـة لاجتنـاء ثمـرتهـا ، واستجـلاء زهرتها .

فلمـا كان المـراد : عرض هـذه الثمرة بين يـدي مثمرهـا ، وزفهـا إلى حضرة قربه ، والطواف بها على ندمان حضرتـه ، قيل لـه : «يا يتيم أبي طالب ، قم فإن لك طالب ، قد أدخر لك مطالب» .

فأرسل إليه أخص خدام الملك[1] ، فلمـا ورد عليه قـادماً : وافـاه على فراشة نائماً ، فقال له :

يا جبريل إلى أين ؟ فقال :

يـا محمد ارتفـع الاين من البين ، فإني لا أعـرف في هذه النـوبـة

---

= رواه الترمذي . وفي الحديث الطويل الذي رواه الإمـام أحمد ومسلم ، والتـرمذي عن أبي هريرة ، والذي أوله : «أنا سيد الناس يوم القيامة ، وهل تدرون ممذلـك ، يجمـع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد» وفيه «ثم يُقـال : يا محمـد ارفع رأسـك ، سل تعط ، واشفع تشفع ، فارفع رأسي فأقول : يا رب أمتي أمتي فيقال : يا محمد أدخـل الجنة من أمتك من لا حسـاب عليه من البـاب الأيمن ، وهم شركـاء الناس فيمـا سوى ذلك من الأبواب» .

(١) هو سيدنا جبريل(عليه الصلاة والسلام) .

أين ، لكني رسول القدم[1] أرسلت إليك من جملة الخدم ﴿**وما نتنزل إلاّ بأمر ربك**﴾ .

قال : يا جبريل ، فما الذي مراد مني ؟

قال : أنت مراد الإرادة ، مقصود المشيئة ، فالكل مراد لأجلك ، وأنت مراد لأجله ، وأنت مختار الكون ، أنت صفوة كأس الحب[2] ، أنت درة هذه الصدفة ، أنت ثمرة هذه الشجرة ، أنت شمس المعارف ، أنت بدر اللطائف ، ما مهدت الدار إلاّ لرفعة محلك ، ما هيىء هذا الجمال إلاّ لوصلك ، ما روق كأس المحبة إلاّ لشربك ، فقم ، فإن الموائد لكرامتك ممدودة ، والملأ الأعلى يتباشرون بقدومك عليهم ، والكروبيون يتهللون بورودك إليهم ، وقد نالهم شرف روحانيتك ، فلا بد لهم من نصيب جسمانيتك ، فشرف عالم الملكوت ، كما شرفت عالم الملك ، وشرف بوطء قدميك قمة السماء ، كما شرفت بهما أديم البطحاء .

قال : يا جبريل ، الكريم يدعوني ؟ فماذا يفعل بي ؟ قال : ﴿**ليغفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر**﴾ .

قال : «هذا لي ، فما لعيالي وأطفالي ، فإن شر الناس من أكل وحده[3]» .

قال : ﴿**ولسوف يعطيك ربك فترضى**﴾ .

قال يا جبريل : الآن طاب قلبي ، ها أنا ذاهب إلى ربي ،فقرب

---

(١) بضم القاف والدال : في القاموس : «يمشي القدم والقدمية ، واليقدمية والتقدمية والتقدمة : إذا مضى في الحرب» وهو يقصد أنه الرسول الذي أرسل إلى الرسل جميعاً ، ولا يتأخر عن شيء يؤمر به ، والله تعالى أعلم .

(٢) بفتح الحاء ، وقد تكون بضمها .

(٣) هذا إشارة من قوله (ص) : «شر الناس من أكل وحده ، ومنع رفده ، وجلد عبده» والمقصود بعياله : أولاده (ص) وأمته جميعاً ، لأن عيال الرجل من يعولهم .

له البراق .

فقال : ما لي بهذا ؟

قال : مركب العُشاق .

قل : «أنا مركب سوقي» وزادي توقي ، ودليلي : ليلي ، أنا لا أصل إليه إلاَّ به ، ولا يدلني عليه إلاَّ هو .

وكيف يطيق حيوان ضعيف أن يحمل من يحمل اثقال محبته ، ورواسي معرفته ، وأسرار أمانته التي عجزت عن حملها السموات والأرض والجبال ، وكيف تطيق أن تدل بي ، وأنت الحائر عند سدرة المنتهي .

وقد انتهى إلى حضرة ليس لها منتهى ! ؟

يا جبريل : أين أنت مني ، ولي وقت لا يسعني فيه غير ربي[1] .

يا جبريل : إذا كان محبوبي ليس كمثله شيء ، فأنا لست كأحدكم ، المركوب يقطع به المسافات ، والدليل يستدل به إلى الجهات ، وإنما ذلك محل الحدثات ، وأنا حبيبي مقدس عن الجهات ، منزه عن الحدثات ، لا يوصل إليه بالحركات ، ولا يستدل عليه بالإشارات ، فمن عرف المعاني : عرف ما أعاني ، هلم ، إن قربي منه مثل قاب قوسين أو أدنى .

فوقعت هيئة الوقت على جبريل ، فقال : «يا محمد إنما جيء بي إليك لأكون خادم دولتك ، وصاحب حاشيتك ، وجيء بالمركب إليك لأظهار كرامتك» .

---

(١) أوردناه سابقاً فارجع إليه .

(٢) هذا كلامه(رضي الله عنه)، فكيف يقال : إنه يقول بالحلول والتحاد ؛ وقوله «إن قربي منه» كقوله تعالى : ﴿ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً﴾ وليس لله تعالى جهة يقبض إليها الظل . تعالى الله عن ذلك وإنما هو قرب معنوي لا حسي .

لأنك الملوك من عاداتهم إذا استزاروا حبيباً ، أو استدعوا قريباً ، وأرادوا ظهور كرامتهم واحترامهم ، أرسلوا أخص خدامهم ، وأعز دوابهم ، لنقل أقدامهم ، فجئناك على رسم عادة الملوك ، وآداب السلوك .

ومن اعتقد أنه سبحانه وتعالى يوصل إليه بالخطأ : وقع في الخطأ .

ومن ظن أنهمحجوب بالغطاء، فقد حرم العطاء .

يا محمد : إن الملأ الأعلى في انتظارك ، والجنان قد فتحت أبوابها ، وزخرفت رحابها ، وتزينت أترابها ، وروق شرابها ، كل ذلك فرحاً بقدومك ، وسروراً بورودك ، والليلة : ليلتكِ والدولة دولتك ، وأنا منذ خلقت منتظر هذه الليلة ، وقد جعلتك الوسيلة في حاجة ، قلت فيها حيلتي ، وانقطعت وسيلتي ، فأنا فيها حائر العقل ، ذاهل الفكر ، داهش السر ، مشغول البال ، زائد البلبال .

يا محمد : حيرتي أوقفتني في ميادين أزله وأبده ، فجلت في الميدان الأول ، فما وجدت له أول ، وملت إلى الميدان الآخر ، فإذا هو في الآخر أول ، فطلبت رفيقاً إلى ذلك الرفيق ، فتلقاني ميكائيل في الطريق ، فقال لي : إلى أين ؟ الطريق مسدودة ، والأبواب دونه مردودة ، لا يوصل إليه بالازمان المعدودة ، ولا يوجد في الأماكن المحدودة .

قلت : فما وقوفك في هذا المقام ؟

قال : شغلني بميكائيل البحار ، وإنزال الأمطار ، وإرسالها في سائر الأقطار ، فأعرف كما أجاجها مدداً ، وكم تقذف أمواجها زبداً ، ولا أعرف للأحدية أمداً ، ولا للفردية عدداً .

قلت : فأين إسرافيل ، قال : ذلك أدخل في مكتب التعليم ،

يصافح بصفحة وجهه اللوح المحفوظ ، ويستنسخ منه ما هو مبروم ومنقوض ، ثم يقرأ على صبيان التعليم ، في مثال ﴿**ذلك تقدير العزيز العليم**﴾ ثم هو في زمن تعلمه : لا يرفع رأسه حياء من معلمه ، فطرفه عن النظر مقصور ، وقلبه عن الفكر محصور ، فهو كذلك إلى يوم ينفخ في الصور .

قلت : فهلم نسأل العرش ونستهديه ، ونستنسخ منه ما علمه ونستمليه .

فلما سمع العرش ما نحن فيه اهتز طرباً ، وقال لا تحرك به لسانك ، ولا تحدث به جنانك ، فهذا سر لا يكشفه حجاب ، وستر لا يفتح دونه باب ، وسؤال ليس له جواب ، ومن أنا في البين حتى أعرف له أين ؟

وما أنا إلاَّ مخلوق من حرفين[١] ، وبالأمس كنت لا أثر ولا عين .

من كان بالأمس عدماً مفقوداً ، كيف يعرف رؤية من لم يزل موجوداً[٢] ، ولا والداً ولا مولوداً[٣] .

وهو سبقني بالاستواء ، وقهرني بالاستيلاء ، فلولا استواؤه لما استويت ، ولولا استيلاؤه ، لما أهديت[٤] .

استوى إلى السماء وهي دخان ، واستوى على العرش لقيام البرهان ، فوعزته لقد استوى ، ولا علم لي بما استوى ، وأنا والثرى

---

(١) كن .

(٢ ، ٣) ولم يزل على صفته التي كان عليها سبحانه وتعالى : ﴿لم يلد ولم يُولد * ولم يكن له كفواً أحد﴾ .

(٤) هكذا هي ، ولعلها «اهتديت» والله أعلم ، وفيه رد واضح على الذين يقولون : إن الاستواء بمعنى الجلوس .

بالقرب منه على حد سوى[1] ، فلا أحيط بما حوى ، ولا أعرف ما زوى ، ولكني عبد له ، ولكل عبد ما نوى .

ثم إني أخبرك بقصتي ، وأبث إليك شكوى غصتي ، أقسم بعلى عزته ، وقوى قدرته : لقد خلقتني ، وفي بحار أحديته غرقني ، وفي بيداء أبدتيه حيرني .

تارة يطلع من مطالع أبديته فينعشني .
وتارة يدنيني من مواقف قربه ، فيؤنسني .
وتارة يحتجب بحجاب عزته فيوحشني .
وتارة يناجيني بمناجاة لطفه فيطربني .
وتارة يواصلني بكاسات حبه ، فيسكرني .

وكلما استعذبت من عربدة سكري ، قال لسان احديته ـ لن تراني ـ .

فذبت من هيبته فرقاً ، وتمزقت من محبته قلقاً ، وصعقت عن تجلي عظمته كما ﴿خر موسى صعقاً﴾ .

فلما أفقت من سكرة وجدي به قيل لي : أيها العاشق ، هذا جمال قدصناه ، وحسن قد حجبناه ، فلا ينظره إلاّ حبيب قد اصطفيناه ، ويتيم قد ربيناه ، فإذا سمعت **﴿سبحان الذي أسرى بعبده﴾** فقف على طريق عروجه إلينا ، وقدومه علينا ، لعلك ترى من يرانا ، وتفوز ، بمشاهدة من لم ينظر إلى سوانا .

---

(١) سوى : بفتح السين والواو ، بمعنى سواء ، واعلم أيها القارىء أن كل ما قاله الشيخ هنا في هذا الكتاب ـ تقريباً ـ لسان حال ـ لايضاح المعنى فجزاه الله خيراً ونقول للذين لا يريدون أن يفهموا .

علي بقطع القوافي من محاجرها ... وما علي إذا ألم يفهم البقر

يـا محمد : إذا كـان العرش مشـوقاً إليـك ، فكيف لا أكون خـادم يديك .

**قدم إليه مركبه الأول** : وهو البراق إلى بيت المقدس .

**ثم المركب الثاني** : وهو المعراج إلى سماء الدنيا .

**ثم المركب الثالث** : وهو أجنحة الملائكة من سماء إلى سماء .

وهكذا إلى السماء السابعة .

**ثم المركب الرابع** : وهو جناح جبريل (ع) إلى سدرة المنتهى .

فتخلف جبـريـل (ع) عنـدهـا ، فقـال : يـا جبـريـل ، نحن الليلة أضيـافـك ، فكيف يتخلف المضيف عن ضيفـه ، «أههنـا يتـرك الخليـل خليله ؟» .

قـال : يا محمـد ، أنت ضيف الكريم ، ومـدعـو القـديم[1] ، لـو تقدمت الآن بقدر انملة ، لاحترقت ﴿**وما منا إلاَّ له مقام معلوم**﴾ .

قال : يا جبريل ، إذا كان كذلك ، ألك حاجة ؟

قـال : نعم ، إذا انتهى بك إلى الحبيب ، حيث لا منتهى ، وقيـل لك : ها أنت وها أنا ، فاذكرني عند ربك .

ثم زج به جبريل (ع) زجة فخرق سبعين ألف حجاب من نور .

**ثم تلقاه المركب الخامس** : وهو : الـرفرف من نـور أخضر ، قـد سـد مـا بين الخـافقين ، فـركبـه حتى انتهى بـه إلى العـرش ، فتمسـك العـرش بأذيـاله ، ونـاداه بلسـان حـالـه ، وقـال : يـا محمـد ، إلى متى تشـرب من صفاء وقتـك آمناً من معتكـره ، تارة يتشـوق إليـك حبيبـك ، وينزل إلى سماء الدنيا[2] .

---

(١) سبحانه وتعالى الذي لا أول له .

(٢) فيه محذوف يدل عليه السياق ، يعني ملائكته ورحمته ، وعلمه ، وفيوضاته : وهكذا .

وتارة يطوف بك على ندمان حضرتـه ، ويحملك على رفرف رأفتـه **﴿سبحان الذي أسرى بعبده﴾** .

وتارة يشهدك جمال أحديته **﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾** .

وتارة يشهدك جمال صمدانيته **﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾** .

وتـارة يـطلعـك على سـرائـر ملكـوتيتـه **﴿فـأوحى إلى عبـده مـا أوحى﴾** .

وتارة يدليك من حضرة قربه **﴿فكان قاب قوسين أو أدنى﴾** .

يـا محمد : هـذا أوان الظمآن إليه ، واللهفـان عليـه ، والمتحير فيـه ، لا أدري من أي جهـة آتيـة ، جعلني أعـظم خلقـه ، فكنت ، أعظمهم وأشدهم خوفاً منه .

يـا محمد : خلقني يـوم خلقني ، فكنت أرعد من هيبـة جـلالـه ، فكتب على قـائمتي : «لا إلـه إلّا الله» فـازددت لهيبـة اسمـه ارتعـاداً وإرتعاشاً .

فلمـا كتب علي «محمـد رسـول الله» سكن لـذلـك قلقي وهـدأ روعي ، فكان اسمك أماناً لقلبي ، وطمأنينة لسري ، ورقية لقلقي .

فهـذه بـركـة وضـع اسمـك علي ، فكيف إذا وقـع جميـل نـظرك إلي .

يا محمد : أنت المرسل رحمـة للعالمين ، ولا بـد لي من نصيب في هـذه الليلة ، ونصيبي من ذلك أن تشهـد لي بالبـراءة من النار ، مما نسبـه إلي أهل الـزور ، وتقولـه على أهل الغـرور ، فإنـه أخـطأ في قـوم فضلوا ، وظنـوا إني اسـع من لا حـد لـه ، وأحمـل من لا هيئة لـه ، واحيط بمن لا كيفية له .

يا محمد :من لا حد لذاته ، ولا عد لصفـاته ، فكيف يكـون مفتقراً

إلي أو محمولاً علي[1] ، فإذا كان الرحمن اسمه ، ولا الستواء : صفته ونعته ، وصفته ونعته متصلان بذاته فكيف يتصل بي أو ينفصل عني ؟ ولا أنا منه ولا هو مني .

يا محمد : وعزته لست بالقرب منه وصلاً ، ولا بالبعد عنه فصلاً ، ولا بالمطيق له حملاً ، ولا بالجامع له شملاً ، ولا بالواجد له مثلاً .

بل أوجدني من رحمته : منة وفضلاً ، ولو محقني لكان فضلاً منه وعدلاً .

يا محمد : أنا محمول قدرته ، ومعمول حكمته ، فكيف يصح أن يكون الحامل محمولاً **﴿فلا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾** .

فأجابه لسان حاله[2] (ص) : أيها العرش ، إليك عني ، فأنا مشغول عنك ، فلا تكدر علي صفوتي ، ولا تشوش علي خلوتي ، فما في الوقت سعة لعتابك ، ولا محل لخطابك .

فما أعاره (ص) طرفاً ، ولا قرأ من مسطور ما أوحى إليه حرفاً **﴿ما زاغ البصر﴾** .

**ثم قدم المركب السادس** : وهو التأييد ، فنودي من فوقه ، ولم ير . «حافظك قدامك : ـ ها أنت وربك» :

قال : فبقيت متحيراً ، لا أعرف ما أقول ، ولا أدري ما أفعل ، إذ وقعت على شفتي قطرة أحلى من العسل ، وأبرد من الثلج ، وألين

---

(١) وهذا وما قبله من أقوى الأدلة على أن ما نسب إليه مكذوب عليه إذ ما ذكره (رحمه الله ورضي عنه) :هو عقيدة أهل للسنة والجماعة .

(٢) كلام العرش وكلام جبريل ورد رسول الله (ص) : هذا كله بلسان الحال ـ وليس بلسان المقال ، فافهم .

من الـزبد ، وأطيب ريحـاً من المسك ، فصـرت بذلـك أعلم من جميع الأنبيـاء والـرسـل ، فجـري على لسـاني : «التحيـات المبـاركـات لله ، الصلوات الطيبات لله ، فأجبت[1] : السلام عليك أيها النبي ورحمـة الله وبركاته ، فأشركت أخواني الأنبياء فيمـا خصصت به ، فقلت : «السـلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» .

أراد بهم الأنبياء(عليهم الصلاة والسلام)[2] .

ولهــذا قيـل لأبي بكـر (رضي الله عنه) ليلة أسـرى بـرسـول الله (ص) : أنـه رأى ربه ، قـال : «صدق ، وكنت معـه متمسكاً بـأذيـالـه ، مشاركة في مقاله» .

قيل : كيف ؟

قال في قوله : السلام علينا ، فأجابه المـلائكة : أشهـد ألا إله إلاَّ الله ، وأن محمداً رسوله .

قـال : ثم نوديت ، أدن يـا محمـد ، فـدنـوت ، ثم وقفت ، وهـو معنى قوله عـز وجل ﴿**ثم دنـا فتدلى**﴾ وقيـل : دنا محمـد في السؤال ، فتدلى ، فتقدم للرب عزّ وجلّ .

قيل : دنا بالشفاعة ، وتقرب إلى الرب بالإجابة .

وقيـل : دنا بـالخدمـة ، وتقرب للرب بـالرحمـة ﴿**ثم دنا فتـدلى**﴾ معنـاه : دنا محمـد من ربه ، فتـدلى عليه الـوحي من ربه ، دنـا لـطافـة فتدلى عليه رأفة ورحمة .

لا يـوصف بقـطع مفـازة ولا مسـافـة ، قـد ذهب الأين من البين ، وتـلاشى الكيف ، واضمحل الابن ، فكـان قاب قـوسين فلو اقتصر على قـاب قـوسين ، لاحتمـل أن يكـون للرب مكـان ، وإنمـا قـولـه : ﴿**أو**

(١) بضم الهمزة وكسر الجيم .

(٢) التحيات لله ، وما بعدها كما ورد في حديث شريف هو حديث التشهد .

أدنى﴾ لنفي المكان ، وكان معه حيث لا مكان ولا زمان ، ولا أوان ولا أكوان .

فنودي : يا محمد تقدم .

فقال : يا رب إذا انتفي الاين ، فأين أضع القدم ؟

قال : ضع القدم على القدم[1] حتى يعلم الكل أني منزه عن الزمان والمكان والأكوان ، وعن الليل وعن النهار ، وعن الحدود والأقطار ، وعن الحد والمقدار .

يا محمد : أنظر ، فنظر فرأى نوراً ساطعاً ، فقال : ما هذا النور ؟

قيل : ليس هذا نوراً ، بل هو جنات الفردوس ، لما ارتقيت صارت في مقابلة قدميك ، وما تحت قدميك : فداء لقدميك .

يا محمد : مبدأ قدمك[2]منقطع أوهام الخلائق .

يا محمد : ما دمت : ما دمت في سير الأين ، جبريل دليلك ، والبراق مركبك .

---

(١) لفظ القدم : له عدة معان تفوق على العشرين ، منها القدم : الجارحة المعروفة ، ومنها ما يقدم ، كما في قوله (ص) عن النار : «يضع الجبار فيها قدمه» أي ما يقدمه لها من أهل الشقاء .

ومنها قوله تعالى : ﴿أن لهم قدم صدق عند ربهم﴾ أي أعمالا قدموها ، قبلها الله تعالى .

والمعنى هنا ـ والله تعالى أعلم ـ ضع رجلك ، على ما قدمنا لك من دار الكرامة للمخلق وهي الجنة ، إذ سقفها عرش الرحمن . وقد قيل إن المصطفى (ص) أصعد على العرش ، وهو المقصود بقوله بعد : «لما أرتقيت صارت في مقابل قدميك» يعني الجنة قال الإمام القشيري في كتابه «المعراج» : وقيل : كان بينه وبين طرف العام مقدار قوسين ، وهو حذاء الجنة .

(٢) «مبدأ قدمك» هنا بمعنى ابتداء ما قدمت لك هو منتهى ما يريد الخلائق أن يصلوا إليه ، فبدايتك : نهاية غيرك والله تعالى أعلم .

فإذا ذهب المكان ، وغبت عن الأكوان ، وانتفي الأين ، وارتفع البين من البين ، ولم يبق إلاَّ قاب قوسين ، فأنا الآن دليلك .

يا محمد : أفتح لك الباب ، وأرفع لك الحجاب ، وأسمعك طيب الخطاب ، في عالم الغيب .

وحدتني تحقيقاً ، وإيماناً ، فوحدني الآن في عالم الشهود ، مشاهدة وعياناً .

فقال : «أعوذ بعفوك من عقوبتك» .

فقيل هذا لعصاة أُمتك ، ليس هذا حقيقة مدعي وحدتي .

فقال : «لا أحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك» .

فقال : يا محمد إذا كل لسانك عن العبارة ، فلأكسونه لسان الصدق ﴿**وما ينطق عن الهوى**﴾ فإذا ضل عيانك عن الإشارة ، فلاجعلن عليك خلعة الهداية ﴿**ما زاغ البصر وما طغى**﴾ ثم لأعيرنك نوراً تنظر به جمالي ، تسمع به كلامي ، ثم أعرفك بلسان الحال معنى عروجك علي ، وحكمة نظرك إلي .

فكأنه يقول مشيراً : يا محمد ﴿**انا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً**﴾ والشاهد مطالب بحقيقة ما شهد به ، ولا يجوز له الشهادة على غائب ، فأريك جنتي : لشاهد ما أعددته لأوليائي ، وأريك ناري لتشاهد ما أعددته لأعدائي ، ثم أشهدك جلالي ، وأكشف لك عن جمالي ، لتعلم أني منزه في كمالي عن المثيل والشبيه والبديل والنظير والمشير ، وعن الحد والقد ، وعن الحصر والعد ، وعن الزوج والفرد ، وعن المواصلة والمفاصلة ، والمماثلة ، والمشاكلة ، والمجالسة ، والملامسة ، والمباينة ، والممازجة .

يا محمد : إن خلقت خلقي ودعوتهم إلي ، فاختلفوا علي .

فقوم : جعلوا العزيز ابني ، وأن يدي مغلولة ، وهم : اليهود .

وقوم : زعموا أن المسيح ابني ، وأن لي زوجة وولداً ، وهم : النصارى .

وقوم : جعلوا لي شركاء ، وهم : الوثنية .

وقوم : جعلوني صورة ، وهم : المجسمة .

وقوم : جعلوني ، محدوداً ، وهم : المشبهة .

وقوم : جعلوني معدوماً ، وهم المعطلة .

وقوم : زعموا أني لا أرى في الآخرة ، وهم : المعتزلة .

وها أنا قد فتحت لك بابي ، ورفعت لك حجابي ، فانظر يا حبيبي يا محمد ، هل تجد فيّ شيئاً معاً نسبوني إليه .

فرآه (ص) بالنور الذي قواه به ، وأيده به من غير إدراك ولا إحاطة ، فرداً صمداً ، لا في شيء ، ولا علي شيء ، ولا قائماً بشيء ، ولا مفتقراً إلي شيء ، ولا هيكلاً ولا شبهاً ، ولا صورة ، ولا جسماً ، ولا محيزاً ، ولا مكيفاً ، ولا مركباً **﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾** .

فأما كلمة شفاها ، وشاهده كفاحاً ، فقال : يا حبيبي يا محمد ، لا بد لهذه الخلق من سر لا يذاع ، وزمن لا يشاع **﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾** فكان(١) سر من سر في سر :

وصلّ اللّهم وسلّم وبارك على أشرف مخلوقاتك ، سيدنا ومولانا محمد ، بحر أنوارك ، ومعدن أسرارك ، ولسان حجتك ، وإمام حضرتك ، وعروس مملكتك ، وطراز ملكك ، وخزائن رحمتك ، وطريق شريعتك ، وسراج جنتك ،وعين حقيقتك ، المتلذذ

---

(١) كان : تامة ، وليست الناقصة .

بمشـاهدتـك ، عين أعيان خلقـك ، المقتبس من نور ضيـائـك ، صـلاة تحل بها عقـدتي ، وتفرج بهـا كربتي ، وتقضي بهـا أربي ، وتبلغني بها طلبي ، صلاة دائمة بـدوامك ، بـاقية ببقـائك ، قـائمة بـذاتك ، صـلاة ترضيك وترضيه ، وترضى بها عنا يا رب العالمين .

وحسبنا الله ونعم الوكيل .

ولا حول ولا قوة إلَّا بالله العلي العظيم .

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم .

والحمد لله رب العالمين .

**تم بحمد الله**